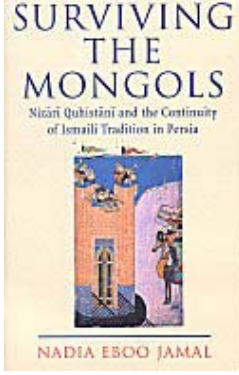




معهد الدراسات الإسماعيلية



## النجاة من المغول: نزارى قاهستاني واستمرارية التراث الإسماعيلي في بلاد فارس بقلم ناديا إيبو جمال

لندن ونيويورك: إ. ب. تورس بالتعاون مع معهد الدراسات الإسماعيلية 2002  
190 pp. ISBN 1 86064 432 5 (HB), 1 86064 876 2 (PB)

### دليل قراءة بقلم فياض علي باي

#### مقدمة

جيد أنك ستتعلم الإمامة  
لأن نور الله في قلب الإمام الطاهر  
من خلال هذا النور ستحرر من الظلام  
اتبع هذا النور وليرافقك السلام

نزارى قاهستاني، دستور نامه

هكذا يبدأ كتاب ناديا إيبو جمال الذي يحمل عنوان **النجاة من المغول**: نزارى قاهستاني واستمرارية التراث الإسماعيلي في بلاد فارس. يتألف هذا الكتاب المشوق من جزئين ولقد حقق نسبة قراءة عالية. لا يثير هذا الكتاب فقط الذاكرة التي يُفتخر بها للتاريخ الإسماعيلي بل ويعطي صورة عن مكانة الإسماعيليين ومساهماتهم في تطور التاريخ والأفكار والثقافات والتقاليد لدى المسلمين. يوضح عمل الكتابة جمال الشجاعة والصبر والتصميم والإنجازات الفكرية والإلتزام الديني عند الإسماعيليين على مر تاريخهم وخاصة بالنسبة للإسماعيليين النزاريين في بلاد فارس ولدرجة أقل في سورية والذين تعرضوا في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد تحت الاحتلال المغولي لتدمير قلاعهم التي شكلت دولتهم وللمجازر بحق أبناء هذه الجماعات وضياح تراثهم الفكري واغتيال إمامهم. لم يحل هذا الدمار وسفك الدماء بالإسماعيليين فقط وإنما "بالملايين من المسلمين الآخرين في أواسط آسيا وحتى شواطئ البحر المتوسط" (صفحة 50-1).

لذلك فإن لهذا الكتاب أهمية كبيرة لمن يرغب بمعرفة أوسع عن هذه المجموعة من الإسماعيليين والذين لم يحافظوا على هويتهم الدينية فحسب وإنما بقوا كجماعة متلاحمة في الظروف الخطيرة والمفرطة بالعذوانية. بالإضافة لذلك فإن هذا الكتاب يعتبر مصدراً غنياً للمعلومات لمن يرغب بكسب رؤية أعمق لحياة وعهد شخص عظيم شهد على الدمار الكبير الذي عمله المغول في بلاده بالإضافة للمجازر بحق أبناء جماعته الإسماعيلية.

يوضح الجزء الأول من الكتاب 'الدعوة الإسماعيلية: الجماعات والتاريخ والمصير' مراحل ظهور وتطور الدعوة الإسماعيلية تاريخياً مع تفاصيل عن تطور الدعوة من مرحلة ظهورها كمنظمة شيعية مميزة تحت قيادة

الإمام جعفر الصادق (توفي عام 148 للهجرة/765 للميلاد) مروراً بفترة تشكيلها كنظام مؤسساتي عند الفاطميين وحتى استخدامها كمصدر قوة كبير للتلاحم والتوحد في فترة آلموت.

يدرس الجزء الثاني 'نزارى قاهستاني: البحث عن المعنى والهوية' شخصية الشاعر سعد الدين شمس الدين (645 للهجرة/1247 للميلاد- 720 للهجرة/1320 للميلاد) والذي يعرف عموماً بنزارى قاهستاني و "محاوالاته العيش في بيئة دينية شديدة العداءة للإسماعيليين" (صفحة 7).

بالنتيجة وعلى الصعيد الفردي فإن الكاتبة جمال تحاول وتنجح في توضيح نضال الإسماعيليين النزاريين "للممود في فترة ذات تغير اجتماعي عميق" (صفحة 7).

## الجزء الأول: الدعوة الإسماعيلية: الجماعات والتاريخ والمصير

### بدايات الدعوة الإسماعيلية و الفاطمية

تبدأ الكاتبة هذا الفصل مؤكدة على أن الدراسات الحديثة للتاريخ الإسماعيلي عبارة عن تصور خطي مبني على العديد من العوامل الزمنية والعقائدية والجغرافية وغيرها. لذلك فهي على تناقض حاد مع الآراء الدورية للوقت والزمن في الفكر الإسماعيلي الأول. هذا الفهم للزمن الدوري،

أصبح إطاراً لنظام تاريخي امتدادي معقد دمجاً علم الكون والنبوة والخلاص والإيمان بالآخرة ضمن منظور علم اللاهوت الشيعي (صفحة 11).

الكثير من هذا تم استخلاصه من القرآن والسنة النبوية وتعاليم الأئمة الشيعة الأوائل بالإضافة لأفكار متعلقة بالأفلاطونية الحديثة ومذهب العرفان والتي كانت سائدة بين المسلمين في القرون الأولى للإسلام.

شهدت هذه السنوات لمن تبع الإمام محمد الباقر (توفي عام 114 للهجرة/732 للميلاد) والإمام جعفر الصادق (توفي عام 148 للهجرة/765 للميلاد) "تطوراً فكرياً.... تمثل بالنقاشات حول العديد من المواضيع اللاهوتية والفلسفية والروحية والباطنية" (صفحة 13). لعب هؤلاء الأئمة دوراً كبيراً في وضع قواعد وأسس علم اللاهوت الشيعي ونظامه القانوني، خاصة العقيدة المركزية للإمامة والتي بتأكيد على الضرورة التاريخية والمستمرة للهداية الإلهية في كل الأوقات تعبر عن الطموحات المادية والروحية للمسلمين الشيعة (صفحة 13).

يؤمن الشيعة كما كل المسلمين "بالإنهاء التاريخي للوحي القرآني وبأن النبي محمد هو خاتم الأنبياء" (صفحة 13). لكنهم يؤكدون على استمرارية الهداية الإلهية والتي تصل بني البشر من خلال آل النبي وعترته. تنوه جمال بأن "وصول الوحي الإلهي لبني البشر بشكله الظاهر" (صفحة 13) يلي دور النبوة. أما الفهم الباطني فإنه يصل بني البشر جيلاً بعد جيل من خلال الإمامة. لذلك يعتبر الشيعة أنمتهم الخلفاء الحقيقيين للنبي، وورثي المعرفة الروحية (العلم) وحملة نور الله وهم حجته في الأرض. لذلك فطاعة الأئمة مطلب جوهري في الإسلام الشيعي لأنه من خلال شفاعتهم ينال المؤمنون معرفة الله والنجاة في اليوم الآخر (صفحة 13).

لقد عمق هذا الإيمان "بالمهمة الشاملة والإلهية للأئمة" (صفحة 13) شعور الجماعات الشيعية الأولى بالهدف التاريخي كما وقد تجسّد لاحقاً بالمنظمة الدينية المركزية عند الإسماعيليين أو ما يعرف بالدعوة.

تتابع الكاتبة لتوضح للقارئ تاريخ الدعوة وتناقش أوجهاً أساسية لتطورها عبر الزمن كما وتراجع الإنقسام بين الشيعة بعد وفاة الإمام جعفر الصادق.

تعد أصول الحركة الإسماعيلية غاية في التعقيد إذا لم تكن غاية في الغموض لكن المفكرين عموماً يتفقون على أن "الشيعة الإسماعيلية تجذرت وازدهرت خلال القرن التالي" (صفحة 18) بعد تلاقي تلك المجموعات الصغيرة التي أمنت بإمامة الإمام اسماعيل ومن بعده ابنه محمد بن اسماعيل.

تذكر التقارير الإسماعيلية أن الإمام محمد بن اسماعيل قد ترك المدينة المنورة مغادراً إلى العراق وبلاد فارس بعد أن أقر أغلب الشيعة (والذين عُرِفوا فيما بعد بالإثنا عشرية) بإمامة موسى الكاظم وهو ابن آخر للإمام جعفر الصادق. عاش الإمام محمد بن اسماعيل ومن خلفه من الأئمة دور ستر لحوالي 150 سنة ويبدو بأنهم قد أخفوا

"هويتهم الحقيقة تحت أسماء وشخصيات مستعارة متكررين كتجار أغنياء أو ملاك أراضى" (صفحة 18) حتى يخذعوا العملاء العباسيين المرسلين لملاحقتهم. لعبت هذه الإستراتيجية دوراً أساسياً "بتمكين الأئمة الإسماعيليين تجنب قدر أقاربهم الأئمة الإثنا عشرية والذين قُتل العديد منهم على يد السلطات العباسية" (صفحة 18).

رغم قلة المعلومات عن الأئمة الإسماعيليين الأوائل خلال فترة دور الستر إلا أنه يوجد العديد من الأدلة الظرفية على دورهم الفعال في تنظيم وقيادة الدعوة الإسماعيلية" (صفحة 18). تذكر المصادر على سبيل المثال بأن محمد بن اسماعيل قد بعث الدعاة إلى خوزستان والمناطق المجاورة لها في بلاد فارس ليدعوا باسم الإمام المستتر. لكن على أية حال "بدأ الدعاة بالوصول لبعض النجاحات" (صفحة 18-19) في عهد إمامة الإمام عبد الله (يعرف أيضاً بالوفي أحمد) ابن وخليفة محمد بن اسماعيل.

نتج عن ذلك المزيد من الإضطهاد العباسي لذلك فقد انتقل الإمام إلى العراق قبل أن يستقر في منطقة سلمية في سورية حوالي عام 257 للهجرة/870 للميلاد. استطاع الوفي أحمد وخليفته أحمد (ويعرف أيضاً بالنقي محمد) ثم الحسين (ويعرف أيضاً برضي الدين) بعيداً عن المراكز المدنية الرئيسية أن يتخفوا ويجدوا الأمن والأمان النسبي بعيداً عن العباسيين بالإضافة لذلك فقد "تمكنوا من تأسيس مركز الدعوة الإسماعيلية" (صفحة 19).

يبدو أن فترة تأسيس الدعوة قد حصلت خلال دور الستر عندما كان هنالك بناء تدريجي وتوسيع للدعوة مما أدى لتحول أعداد كبيرة جداً في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي للإسماعيلية خلال القرنين 3-4 الهجريين/9-10 الميلاديين (صفحة 21).

بالفعل فمع نهاية هذه الفترة ومع الفتح الفاطمي لمصر عام 358 للهجرة/969 للميلاد فقد جرت الأحداث وحولت "سلالة محلية إلى قوة سياسية واقتصادية وعسكرية كبيرة" (صفحة 25). بذلك استطاع الفاطميون تحدي السيطرة العباسية على العالم الإسلامي. خلال تلك الفترة غدت الدعوة مؤسسة رئيسية للدولة الفاطمية و"توازي مؤسساتها التنفيذية ورتباتها العسكرية" (صفحة 26).

من المهم أن ننوه بأنه كان للدعوة الإسماعيلية "شخصية فكرية وروحية عظيمة ..... هدفها الأساسي دعوة الناس للبحث عن المعرفة وتخليص أرواحهم" (صفحة 28). أما داخلياً فقد كانت الدعوة بالنسبة للإسماعيليين مؤسسة معرفة وعلم. وبالفعل فإنه ليس من محض الصدفة بأن يؤدي تركيز الدعوة على الإنجازات الروحية والفكرية إلى ظهور رجال القانون وعلم اللاهوت والفلاسفة والشعراء ذوي المكانة العالية والذين قدّموا الكثير من المساهمات للفكر الإسماعيلي والمجالات الأوسع للتراث الإسلامي.

لقد مكنت الدعوة الإسماعيليين في معظم أنحاء العالم من تثبيت وتوثيق الرابط الروحي بينهم وبين الإمام والذي لم يستطيعوا مقابلته شخصياً أبداً. بمعنى آخر فقد جسدت الدعوة وجود الإمام وتعاليمه (صفحة 30). وبذلك فقد اعتبر كل اسماعيلي نفسه سواء كان فلاحاً أو عالماً كعضو في الدعوة.

يختتم الفصل بشرح عن الأحداث التي أدت للإنقسام النزاري المستعلي عام 487 للهجرة/1094 للميلاد والذي قسم الإسماعيليين لقسمين يتبع كل منهم خطأ منفصلاً من الأئمة.

### الدعوة الإسماعيلية النزارية

عمل الإسماعيليون قبل الإنقسام " كحركة موحدة ذات تنظيم مركزي" (صفحة 32). لكن بعد عام 1094 اتبع معظم الإسماعيليين في مصر واليمن والهند الإمام المستعلي كإمام خليفة بينما اتبع الإسماعيليون في بلاد فارس والعراق وسورية الإمام نزار. كنتيجة لذلك فقد طورت الدعوة النزارية "تراثها الفكري والأدبي الخاص" (صفحة 32).

تناقش الكاتبة جمال موضوعين أساسيين في هذا الفصل. يوضح الأول ظهور وتوحيد وامتداد الدعوة الإسماعيلية النزارية والدور المحوري للحسن بن الصباح (توفي عام 518 للهجرة/1124 للميلاد) في هذه التطورات. تلقى الحسن بن الصباح تعليمه الأول في الري ولقد كان له دوراً قيادياً في تنظيم الدعوة الإسماعيلية. تحول من المذهب الإثني عشري بعمر السابعة عشرة وسافر للقاهرة عام 469 للهجرة/1076 للميلاد خلال عهد الإمام المستنصر. عاد إلى بلاد فارس بعد أن قضى ثلاث سنوات هناك ليمضي السنوات التسع التالية متنقلاً بين المراكز الإسماعيلية بمهمة داعي.

علمه سفره أن الإسماعيليين ضعفاء وهم " معرضون بشكل خطير " (صفحة 33) للإضطهاد من قبل أعدائهم وبغرض تأمين حمايتهم فقد أخذ البحث عن قاعدة يمكنه العمل انطلاقاً منها بحيث تكون قوية وصعبة المنال. استقر قراره على الموت والتي استطاع إحكام سيطرته عليها من دون إراقة دماء عام 483 للهجرة/1090 للميلاد بعد أن كانت تحت سيطرة قوات موالية للسلاجقة. مكن هذا النجاح وشجاعة الحسن بن الصباح الإسماعيليين الفرس من السيطرة على العديد من "الحصون والمدن والقرى الإستراتيجية في المناطق المحيطة من رادبار بالإضافة لقاهستان في جنوب خراسان" (صفحة 34).

دأب الحسن بن الصباح على امتداد عشرين عاماً على تكثيف نشاط الدعوة وتشكيل "دولة اسماعيلية في الديلم وقاهستان وامتد نشاطها لمقاطعات خوزستان (عربستان) وفارس في بلاد فارس وحتى العراق وسورية" (صفحة 34-35).

كان الحسن بن الصباح رجلاً منقطع النظير. تذكر الكاتبة جمال بأنه كان:

رجلاً ذو شخصية قيادية يتمتع بالتقوى العميقة والذكاء العسكري عظيم التفاني لقضيته..... كان قادراً على تنظيم الدعوة النزارية كقوة كبيرة من خلال استراتيجيات نادراً ما استخدم مثلها سواء ممن قبله أو بعده. لم تنحصر مهاراته بذلك وحسب فقد كان عالماً مقتدراً وكاتباً وشاعراً فقد كتب العديد من الكتب الأصلية والقيمة عن تعاليم العقيدة وعلم الإمام (صفحة 36).

أما الموضوع الأساسي الثاني الذي تتم مناقشته في هذا الفصل فهو موضوع القيامة وإعلان تاريخ السابع عشر من رمضان 559 للهجرة/ الثامن من آب 1164 للميلاد كذكرى وفاة الإمام علي. حدث ذلك في عهد الإمام الحسن على ذكره السلام والذي أنهى دور الستر وكشف عن نفسه كإمام الزمان. تقدم الكاتبة شرحاً رائعاً عن معنى القيامة في الفكر الإسماعيلي وكيف ترتبط بالإمام في الإسلام الشيعي. لقد ألهمت القيامة عودة النشاطات الإسماعيلية بجانبها الفكري والأدبي. كان ذلك فقط لفترة قصيرة فقد كان المغول قد ظهروا في الأفق بأعداد كبيرة.....

### الكارثة المغولية

تؤكد الكاتبة جمال في هذا الفصل بأنه على خلاف السلاجقة من التركمان الرُّحل والذين كانوا مسلمين عندما دخلوا بلاد فارس، فقد كان المغول صنفاً من الغزاة مختلفاً بشكل كلي: لم يكن لهم أي ارتباط بالإسلام ولم يسعوا لفرض عقائدهم الخاصة المتنوعة من بوذية وشامانية على المسلمين. كان طموحهم السياسي والعسكري أبعد من ذلك بكثير وكانت وحشية حروبهم منقطعة النظير في التاريخ" (صفحة 44).

حقاً كان الغزو المغولي "من أفظع ما مر على العالم الإسلامي" (صفحة 1) وأدى لعزل بغداد وتدمير الخلافة العباسية في عام 656 للهجرة/1258 للميلاد. كانت إبادة الإسماعيليين "مهمة صغيرة لكن ضرورية" للمغول (صفحة 50). عمل المغول بنجاح في كل من المجالات الاقتصادية والسياسية والدينية على تخريب وإعاقة ظهور أنماط جديدة من التفكير والتنظيم الاجتماعي في العالم الإسلامي في الوقت الذي كانت أوربا الغربية تمر في تحول تاريخي من النظام الإقطاعي لنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي جديد (صفحة 2).

أصبحت القبائل المغولية قوية تحت حكم جنكيز خان (توفي عام 625 للهجرة/1227 للميلاد) والذي "بنى إمبراطورية أوراسية امتدت من بحر اليابان وحتى شواطئ بحر قزوين ومن سهول الفولجا في روسيا وحتى الحوض النهري لبلاد ما وراء النهر" (صفحة 44).

ارتكب المغول في المناطق التي مروا بها في وسط آسيا من بخارى وسمرقند وبلخ مجازر بالسكان المحليين مخلفين هذه المدن الزاهرة خراباً. كما وقد تم تدمير كل من مدينتي مرو ونيسابور في مقاطعة خراسان في شمال بلاد فارس.

تابع خلفاء جنكيز خان أوقطاي وجويوك ومونكو طموح توسيع الإمبراطورية وعملوا على السيطرة على غرب آسيا. في عام "650 للهجرة/1252 للميلاد أرسل مونكو أخاه هولاكو ليتقدم بغزو المناطق الناطقة بالفارسية جنوب نهر جيحون (نهر أوكسوس)" (صفحة 45).

حصلت أول مواجهة بين المغول والإسماعيليين في عام 651 للهجرة/1253 للميلاد عندما سيطرت القوات المغولية على عدد من المناطق التي كان يسيطر عليها الإسماعيليون في قاهستان حيث قتلوا السكان وحاصروا حصن جبرددكوه. وفقاً لأحد التقارير فقد " قتل حوالي 12000 اسماعيلي في مدينة تون وحدها بأوامر من هولاكو " (صفحة 46).

بعد ثلاث سنوات في عام 654 للهجرة/1256 للميلاد عبر هولاكو وجيشه نهر جيحون ودخلوا خراسان. سيطر هولاكو مجدداً على مدينة تون وأمر بذبح كل السكان باستثناء النساء الصغيرات والأطفال. أدى هذا لاستسلام الحاكم الإسماعيلي في قاهستان للمغول كما ودفع ذلك الإمام ركن الدين خير شاه (حوالي عام 627 للهجرة/1230 للميلاد- 655 للهجرة/1257 للميلاد) بإرسال أخيه برسالة لهولاكو. غير أن هولاكو طلب استسلام الإمام بشكل شخصي وأن يأمر أتباعه بتدمير كل حصونهم في البلاد" (صفحة 47).

تتابع الكاتبة جمال بشرح مفصل عن احتجاز الإمام وإعدامه من قبل المغول وعن البطش والقسوة والدمار الذي ألحقه المغول بالمناطق الخاضعة للإسماعيليين.

استطاع الإسماعيليون النزاريون الصمود بنجاح بوجه أعدائهم من سلاجقة وملوك خوارزم وغوريين وعلى الرغم من الصمود البطولي الذي أظهره في بعض الحصون إلا أن البطش والفتك المغولي كان أكبر من ذلك ولم يتعدى صمودهم أمامه الشهور.

كان للغزو المغولي نتائج دائمة على الجماعات الإسماعيلية بشكل عام والنزاريين في بلاد فارس بشكل خاص والذين لم يستطيعوا أن يتمتعوا بعدها بنفس الدرجة من النفوذ السياسي والفكري والديني كما استطاعوا في القرون الخمسة السابقة للإسلام (صفحة 51).

لقد أهلك الإسماعيليون، لكنهم لم يبادوا خلافاً لما تذكر بعض المصادر التاريخية المسلمة المعاصرة واستطاعت الجماعات الإسماعيلية الإستمرار كما استطاع حبل الإمامة بعد الإمام ركن الدين خير شاه. بالفعل فقد ذكر بأن ابن الإمام ركن الدين خير شاه وخليفته شمس الدين محمد (استلم الإمامة بين 655 للهجرة/1257 للميلاد وتقريباً حتى 710 للهجرة/1310 للميلاد).

قد أخفي من قبل مجموعة من الدعاة بمكان آمن قبل احتلال المغول للقلاع وثقل بعد ذلك لأذربيجان حيث كانت الدعوة الإسماعيلية نشطة منذ وقت طويل (صفحة 51).

توضح الكاتبة الأدلة التي تدل على نجاة الإسماعيليين لوقت طويل بعد أن دُمّرت دولتهم وتذكر عودة ظهورهم في الجزء الأخير من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد في أنجودان في وسط بلاد فارس. لا يوجد الكثير من المعلومات عن الإسماعيليين في القرون الأولى بعد سقوط الموت. لقد تحطمت روحهم المعنوية وتشرذموا ورُحّلوا وانتقلوا كما الكثير من الجماعات الأخرى من الريف إلى المدينة بحثاً عن الأمان والحياة الأفضل.

## الجزء الثاني: نزارى قاهستاني: البحث عن المعنى والهوية

نتنقل الآن للجزء الثاني من الكتاب حيث تحاول الكاتبة جمال فحص " بعض الإستراتيجيات التي اتبعتها الإسماعيليون ليحافظوا على معتقداتهم وحس الهوية عندهم كجماعة مسلمة مميزة " ( صفحة 53). تقوم الكاتبة بذلك من خلال تحليل حياة وكتابات الشاعر نزارى قاهستاني "الذي عاش في السنوات التي تلت مباشرة سقوط الموت وتشكل هذه الكتابات المصدر الرئيسي للمعلومات عن اسماعيلي تلك الفترة" (صفحة 53).

## الشاعر نزارى قاهستاني

إضافة لدراسة الكاتبة جمال حقيقة كون أعمال الشاعر نزارى قاهستاني تظل إحدى المصادر القليلة التي استطاعت البقاء خلال فترة الحكم المغولي فإن دراسة الكاتبة هذه مهمة على الأقل للأسباب الثلاثة التالية:

1. يُمكننا كتاب رحلاته (سفرنامه) من إدراك كيف نجا الإسماعيليون النزاريون وكيف استطاعوا الإستمرار بتقاليدهم تحت الحكم المغولي.

2. تقدم لنا كتاباته صوراً رائعة حول التداخل الإسماعيلي الصوفي في تلك الفترة.
3. لاتزال كتابات نزارى مجهولة بشكل كبير في العالم الناطق بالإنكليزية. لذلك فإن لهذه الدراسة أهمية خاصة بتقديم القارئ العادي لحياته وشعره.

قضى الشاعر نزارى قاهستاني معظم حياته تحت الحكم المغولي لبلاد فارس حيث كان شاهداً على الدمار الواسع الذي ألحقه الغزاة المغول ببلاده بما في ذلك المجازر التي ارتكبت بحق الجماعات الإسماعيلية النزارية التي ينتمي إليها. ولد نزارى عام 654 للهجرة\ 1247 للميلاد في بيرجاند في الجزء الجنوبي الشرقي من المنطقة الجبلية من قاهستان في مقاطعة خراسان. يبدو أنه اكتسب شهرة شعرية عندما كان في بلاط الحاكم المحلي في خراسان وقاهستان الذي حكم بالنيابة عن المغول في النصف الثاني من القرن السابع الهجري\ الثالث عشر الميلادي. أدى تدمره وانتقاداته لسياسات الطبقات الحاكمة لطرده من عمله ولنفيه للريف. غدى نزارى فقيراً وظهر له كشخص غريب الأطوار. أمضى حياته بالكتابة حتى وفاته عام 720 للهجرة\ 1320 للميلاد.

رغم النوعية العالية لشعر نزارى إلا أن أعماله أهملت لأسباب منها، ندرة هذه الأعمال وصعوبة الوصول إليها حتى وقت قريب بالإضافة "للعنصرية الشديدة للبيئتين الدينية والسياسية في ذلك الوقت ضد الإسماعيليين الأمر الذي أدى لتثبيط دراسة وانتشار أعماله" (صفحة 58).

تبحث الكاتبة بتفاصيل دقيقة عن أصل اسم نزارى والجدل الذي يدور حول شخصيته وانتمائه الديني. يجمع الأكاديميون في العصر الراهن بأن الشاعر نزارى قاهستاني كان إسماعيلياً من دون شك. تعمل الكاتبة جمال على إعادة رسم المرحلة الأولى من حياة وثقافة نزارى وعمله في هارات ثم لاحقاً في بيرجاند قبل أن تنتهي بتفاصيل عن المراحل التالية من حياته. تتواجد مقاطع من شعره في كل هذه الأجزاء "فشعره هام جداً ومتعدد الأوجه ويعكس معرفة عالية ولذلك فشعره يستحق دراسة مستقلة" (صفحة 83).

كما و أن أعمال نزارى مشوقة في مادتها الغير مثبتة والتي تبحث في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في خراسان وقاهستان تحت الحكم المغولي. تشرح الكاتبة عن هذه النقطة قائلة:

يتميز نزارى عن غيره من الشعراء الفرس في عصره بكونه تمتع بشجاعة وأخلاق عالية فقد استنكر الفساد وغيب العدل في زمانه وكان له الدور الريادي بالدفاع عن حقوق أكثر المتضررين من هذه الأوضاع (صفحة 83).

### الإسماعيلية والصوفية ونزارى قاهستاني

كما نوهنا سابقاً، لم يكتثرث القادة المغول بالمعتقدات الدينية للشعوب التي خضعت لحكمهم كما وأظهروا التسامح تجاه الاختلاف الديني وحرية العبادة. كان اضطهادهم للإسماعيليين منهجياً "مدفوعاً بعوامل سياسية لكونهم استمروا بالنظر للإسماعيليين كقوة عسكرية ذات تهديد مستمر لحكمهم" (صفحة 85).

باستثناء حالة الإسماعيليين فقد أدى التسامح الديني في العصر المغولي إلى "إذابة تدريجية للتوتر الذي فرق الديانات والمذاهب المتعددة خلال فترة الحكم السلجوقي" (صفحة 85) الأمر الذي أدى للظهور التدريجي للمذهب الإثنا عشري. في الحقيقة وكما تجزم الكاتبة نادياً جمال:

يمكن اعتبار إعادة إحياء المذهب الإثنا عشري في القرن السابع للهجرة\ الثالث عشر للميلاد نتيجة مباشرة لتدمير المغول للمنافسين الآخرين: الخلافة السنية في بغداد والدولة الإسماعيلية في ألمات (صفحة 86).

بالإضافة لتقديم معلومات عن إعادة إحياء المذهب الإثنا عشري فإن هذا الفصل يناقش التحول الصوفي لحركة كبيرة وشعبية والتي "تغلغل أثرها الاجتماعي والثقافي بكامل جوانب الثقافة الفارسية بما في ذلك اللغة والأدب" (صفحة 87).

كان للصوفية نفوذ قوي في العالم الإسلامي حتى قبل دخول المغول للساحة. في الحقيقة "و مع حلول القرن السادس للهجرة\ الثاني عشر للميلاد باتت الصوفية مترسخة وسمة هامة للحياة الفارسية الفكرية والدينية" (صفحة 86). سرعان ما ازدهرت الصوفية أكثر بتشجيع من السياسة المغولية للتسامح الديني بالإضافة لرد الناس النفسي على العذاب الإنساني الذي سببه الغزو المغولي. في الحقيقة وخلال القرون الثلاثة التالية أصبح تأثير الصوفية بالغاً في الحياة الدينية والثقافية عند كل الجماعات والطبقات (صفحة 86).

تركز الكاتبة جمال على كم المفردات الصوفية لتجعل ظهورها واضحاً في اللغة الفارسية الجديدة. يعتمد الشعر الصوفي بشكل وصفي على الإستعارات والرموز الدلالية لإظهار الغرض الحقيقي للشاعر أو رسالته الباطنة. لذلك فقد تطور نظام معقد للصور والرموز والتي ارتبطت في الغالب بحب الإنسان وشرب الخمر والتي كانت متعارفاً عليها في تراث البلاط والتراث الشعبي في خراسان والأدب الشعري العربي (صفحة 87).

أضحى هذا التعبير الشعري شديد التأثير في العصر المغولي حيث أن الشعراء وحتى العلمانيون منهم قد استخدموا نفس المفردات والتراكيب الصوفية. تذكر الكاتبة جمال العديد من الأمثلة مع سياقها بشكل ساحر في الفصل الأخير وخاصة فيما يخص أعمال نزارى.

بعد مناقشة التأثير المتبادل بين الصوفية والشيوعية فإن الفصل يوضح العلاقة بين الإسماعيلية والصوفية قبل التركيز على علاقة نزارى بالصوفية ولهذه العلاقة أهمية كبيرة حيث تشكل الصوفية جزءاً هاماً من شعر نزارى "الأمر الذي لايزال مصدر تشكيك وتشويش" (صفحة 74) على الرغم من القبول الأكاديمي بهويته الإسماعيلية.

كان نزارى الكاتب الإسماعيلي الأول الذي ابتعد عن "أساليب وتقاليده الشعراء الإسماعيليين السابقين في العصر الفاطمي" (صفحة 93) مثل أشعار المؤيد في الدين الشيرازي بالعربية وناصر خسرو بالفارسية. بالإضافة لذلك فإن إمامه بالنظريات الصوفية جعل من الصعب التفريق بين ما هو صوفي وما هو إسماعيلي. لذلك فإن الكاتبة جمال تتوقف "لتراجع باقتضاب كيف يعرف نزارى موقعه بالنسبة للصوفية والجماعات الدينية الأخرى التي عاش ضمنها" (صفحة 94). تقوم بذلك من خلال تسليط الضوء على إشارات نزارى في كتاباته للإمامة ولمفهوم الولاية أو السلطة الروحية والتي يختلف مفهومها بالنسبة للسنة والشيعة الإثنا عشرية والصوفيون.

في حديثه عن الإمامة يتحدث نزارى عن مبدأ الوراثة المباشرة للأئمة من النبي محمد وعن شرط "وجود الإمام جسدياً في هذا العالم بشكل دائم كوسيط للرحمة الإلهية للبشرية" (صفحة 97).

تختتم الكاتبة هذا الفصل بالذكر والتعليق على مراجع نزارى لمفاهيم الظاهر والباطن والتعليم والتأويل وغيرها. كما وتوضح أهمية مفهوم التقية لمسيرة نزارى وتطورها بالإضافة للصعوبات البالغة التي عانى منها كي يخفي عقيدته قبل إعلانه الارتباط بالدعوة الإسماعيلية.

### كتاب نزارى سفرنامه: رحلة داعي

يخصص هذا الفصل الأخير من الكتاب لإنجاز نزارى الأول: سفرنامه. يبرز هذا الكتاب بشكل خاص من بين أعماله الأخرى ليس فقط لكون محتواه من سيرته الذاتية يشكل مصدراً قيماً للمعلومات عن حياته ونشاطاته وحسب بل وبالإضافة لذلك فإن المقاطع البالغة 1200 مقطع والمشباهة لكتاب المتنوي تشكل ربما أكثر عمل إسماعيلي واضح يتطرق بشكل متكرر وشامل للعقائد والأفكار الإسماعيلية. تضع الكاتبة جمال رحلة نزارى بسياقاتها المتعددة كما وتقارن وتفرق بشكل مفصل بينها وبين رحلة قام بها ناصر خسرو، "الإسماعيلي الشهير السابق في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد والذي كان شاعراً فاطمياً وعالماً بالإلهيات وفيلسوفاً وداعياً دعاة خراسان" (صفحة 110). وكما ذكرنا مسبقاً تتناقش الكاتبة بعض الرموز والمصطلحات الصوفية في الشعر للسُّكّر والجنة والتي يذكرها نزارى عند وصف رحلاته وزيارة بعض الأماكن ومقابلة بعض الناس بشكل خاص.

بدأ نزارى رحلته في الأول من شوال عام 678 للهجرة/الرابع من شباط 1280 للميلاد عندما كان في الثالثة والثلاثين من العمر. كان رفيقه في رحلاته تاج الدين أحمد والذي كان "مسؤول في الحكومة المغولية" (صفحة 108). انطلقوا من تون في قاهستان غرباً " من خلال أواسط بلاد فارس عبر أصفهان وحتى أنزريجان والران وأرمينيا وجورجيا وحتى باكوا على شواطئ بحر قزوين" (صفحة 108). عندما عاد من رحلته عام 681 للهجرة/1282 للميلاد ذهب لبيرجان بعد أن استقال من الوظيفة الإدارية التي كان يشغلها في هارات. ليس من الواضح فيما إذا كان قد استقال من الوظيفة قبل رحلته أو بعد عودته مباشرة.

كتاب نزارى سفرنامه كتاب معقد وفيه الكثير من الألغاز. فهو لا يشرح بصراحة التفاصيل الكبرى في رحلته وفي الحقيقة يظهر الشاعر "تردداً واضحاً لإعطاء القارئ أي شيء أكثر من المعلومات المجردة عن الأحداث الرئيسية والشخصيات التي قابلها في المناطق المختلفة" (صفحة 109).

يُرجح هذا بأن نزارى قد جلس ليكتب هذا الكتاب وقد التزم التقية ليخفي السبب الحقيقي وراء رحلته عن جميع القراء ما عدا القلة من الإسماعيليين والذين يستطيعون قراءة ما بين السطور وفهم الأهمية البالغة لكتابته" (صفحة 109).

لا يصرح نزارى بشكل واضح بأي وقت عن سبب خوضه هذه الرحلة. كما أنه لا يحدد "فيما إذا قد ذهب برحلته هذه بصفته مسؤولاً حكومياً رسمياً أو فيما إذا كانت بدافع ديني أو بدافع شخصي خاص" (صفحة 111). يذكر بأنه من خلال كتابته لهذا المتنوي فهو لا يهدف لسرد قصة مسلية فحسب وإنما "ليتذكر لقاءاته مع رفاقه" (صفحة 111).

لكن من هم هؤلاء الأصدقاء ولماذا قطع رحلة لعدة مئات من الأميال من دون "هدف واضح وصريح كالبحر أو البحث عن العلم والمعرفة أو لغرض التجارة أو لمهمة من الحكومة أو أي شيء آخر واضح ومحدد؟" (صفحة 111).

تستخرج ناديا جمال بنجاح الدوافع الحقيقية والنشاطات من النص من خلال دراسة المراحل المختلفة لرحلة نزارى من أصفهان إلى تبريز ذهاباً وإياباً. بذلك نفهم من بين أمور متعددة النقاط التالية:

1. كان رفيق نزارى في أسفاره تاج الدين أحمد على الأرجح إسماعيلياً يمارس التقية وكان قد ارتقى لمنصب رفيع في الحكومة المغولية مثلما حصل مع نزارى على الصعيد المحلي في هارات. فقد "تجاوزت الرابطة الروحية بينهما" (صفحة 113) العلاقة المهنية.
2. كان الرفاق الذين رغب نزارى "بتذكر لقائهم" (صفحة 111) على الأرجح أعضاء في الدعوة وقد خطط للقائهم مسبقاً.
3. كان لأصدقاء نزارى مظاهر الشيوخ الصوفيين حيث أن الإسماعيليين النزاريين في بلاد فارس قد أعادوا تنظيم أنفسهم بأسلوب شبيه بأسلوب الطرق الصوفية.
- ولقد كانت عملية إعادة التنظيم متقدمة بشكل جيد في الجزء الأخير من القرن السابع للهجرة /الثالث عشر للميلاد، أبكر بما يزيد عن قرن من الزمن عن عهد الصوفيين عندما عاد ظهور الأئمة الإسماعيليين وتنظيم دعوتهم للعموم تحت غطاء الصوفية (123).
4. من المرجح بشكل كبير أن لقاء نزارى في تبريز برجل شاب "ذو سلطة روحية استثنائية" (صفحة 131) كان بغرض مبايعة إمام الزمان والذي كان شمس الدين محمد وخاصة أن مصادر الإسماعيليين في بلاد فارس وسورية تشير إلى أن الإمام "كان يعيش في مكان قريب من تبريز في نفس الزمن الذي زار نزارى قاهستاني به المدينة في صيف عام 679 للهجرة/1280 للميلاد" (صفحة 134).

بذلك تستطيع ناديا جمال من خلال التحليل العميق والشامل لكتاب نزارى سفرنامه وقراءة ما بين السطور أن توضح وبقوة استمرارية الدعوة الإسماعيلية على الرغم من تغير شكلها الظاهر لكن "مع ميزات وفعالية وروح الرسالة عند الجماعات الإسماعيلية" (صفحة 146). كما وتكشف الطريقة المفاجئة التي شرح بها نزارى كيف استطاع العديد من الإسماعيليين في قاهستان ومناطق أخرى من بلاد فارس النجاة والإستمرار على الرغم من فقدانهم لقوتهم السياسية واستقلالهم الإقليمي.

في حالة شاعرنا بشكل خاص نجد أنه على امتداد مهنته الشعرية قد أجبر على اتباع أساليب واستراتيجيات مختلفة ليخفي هويته الإسماعيلية. في الحقيقة على الرغم من محاولات نزارى المستمرة للتوفيق بين هويته الظاهرة كشاعر في البلاط المغولي وبين بقائه مخلصاً صادقاً لعقيدته إلا أنه في نهاية المطاف فشل عندما كشفت هويته الإسماعيلية.

توضح حياة نزارى وكتاباته صراعات القوى المتضادة التي لعبت دوراً في حياته. يبين هذا كيف كان نزارى "شاعراً عظيم المهاره والطموح وكيف كان داعياً إسماعيلياً مخلصاً مفعماً بالتراث الصوفي وكيف كان مفوهاً بالنقد الإجتماعي" (صفحة 146). بالإضافة لذلك فإن أعماله تؤمن لنا رؤية معمقة عن التوتر الذي يربط بين الكتابة والإضطهاد وبين السرية والجهر وبين الضمير ومماشة الواقع والتي كانت من خصائص شعره" (صفحة 146).



## بلاد فارس والمناطق المتاخمة لها في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد



من كتاب النجاة من المغول: نزارى قاهستاني واستمرارية التراث الإسماعيلي في بلاد فارس. لندن 2002

في الحقيقة هذه التوترات تعكس حال جميع الإسماعيليين النزاريين تحت الحكم المغولي. على الرغم من أن كتابات نزارى تذكرنا بالأوقات القاتمة والعصبية التي مر بها الإسماعيليون النزاريون في بلاد فارس إلا أنها تمثل منارة أمل وإلهام بالطريقة التي يصف فيها نجاة الإسماعيليين وثباتهم والتزامهم بعقيدتهم مهما كانت الظروف.

### اقتراحات لقراءات إضافية

تمثل هذه الاقتراحات مجموعة صغيرة ومنتقاة من المراجع. يمكن بالطبع إيجاد العديد من المراجع الأخرى في قائمة مراجع الكتاب.

1. مختصر تاريخ الإسماعيليين: تقاليد جماعة مسلمة. فرهاد دفتري. إدنبرة، 1998.
2. الفاطميون وتقاليدهم في التعلم. هاينز هالم. لندن، 1997.
3. ناصر خسرو، ياقوت بدخشان: لوحة شاعر ورحالة وفيلسوف فارسي. أليس هانزبرجر. لندن، 2000.
4. وميض النور: مختارات من الشعر الإسماعيلي. ترجمة فقير هونزاي. تحرير قطب قسام. لندن، 1996.
5. سير وسلوك، نصير الدين الطوسي. حرره وترجمه ج. بدخشاني ونشر بعنوان: التأمل والعمل: السيرة الذاتية لعالم مسلم. لندن، 1998.
6. روضة التسليم، نصير الدين الطوسي. حرره وترجمه ج. بدخشاني ونشر بعنوان: جنة التسليم. لندن، سيصدر قريباً.